

المجلة

١٣١٥

يوم السبت ٢٧ ذى القعدة سنة ١٣١٦ الموافق ٨ ابريل (نيسان) سنة ١٨٩٩

﴿ الإصلاح الإسلامى ﴾

لأحد أفاضل الكتاب فى دمشق الشام

رن فى هذه الأيام صدى كلمة الإصلاح فى هيئة المجتمع الإسلامى لتقويم أوده ، وإرجاع سالف مجده ، وهى الكلمة التى أصغت لسماعها الآذان حيناً من الدهر ، ورصدت لها الميون ظهوراً فى هذا العصر ، وقد أخذ نهاء الكتاب ، ممن اتوا الحكمة وفصل الخطاب ، فى سلوك سبل توصل إلى هذا المقصد العزيز ، وأناروا مصباح رأيهم فى هذا الميدان الرحيب ، الذى ضربت عليه مرادق ظلام الجهل ، وخفيت فيه أنوار العلم والفضل ، حتى تاهت فى بيدائه العقول وحارت فى أرجائه الألباب إلى أن أسفر للبعض منهم صبح من الإصلاح سار تحت ضيائه ، وأرشد الكافة إلى نوره وسنائه ، والبعض لاح له حباب يضىء فظن أنه سيظهر شمساً ، أو يكون فى عالم الإصلاح بدرأ ، والبعض رأى ما رأى مما وقفتم عليه فى الجرائد ولكل وجهة اتجه إليها ، وعول فكره عليها ، إلا أن من سبر غور الحوادث

وتتبع سير تقلباتها وتنوع أطوارها علم أن سيرها على جادة مستقيمة وخطة قوية ما كانت تحدث طفرة بل بسير متتابع بمضه خب وبمضه عنق .

ونحن إذا نظرنا إلى ما اقترحه الكتاب من الأخذ بالأسباب المزعوم بها الإصلاح وجدنا مقترحهم من نوع الطفرة التي هي محال في سير الزمان وتقلبات الأحوال وقد تبرعوا به في غير وقته وكان الأجدر أن يلتفتوا إلى ما هو أمامه من العقبات التي تصيق دون الوصول إليه فإذا مهدت ظهر نجاح مقترحهم ^(١) (لاندري من يريد بطالبي الطفرة) .

وما دامت هذه الأطوار الشوامخ حائلة في طريق الإصلاح ولها السيطرة القوية والنفوذ التام على الخاص والعام فمن المحال الوصول إلى المطلوب إلا بالطريق الذي سلكت عليه أوربا أول حضارتها وقد علمت أسبابه وكشفت نقابه وفي مقدمة تاريخ مشرلكان ما فيه كفاية للوقوف على نهضة الأمم الغربية من رقتها وكيف زحزحوا العقبات الناشئة في طريق تقدمهم حتى ظفروا بيفيتهم ولم يتنبه المعارضون في سبيلهم إلا والقوة كانت في طرف أخصامهم فهبوا إلى إثارة شرار الشر ضدهم فلم ينجحوا وخاب مساهم فلم يفلحوا أو بالطريق الذي سلكت عليه اليابان في تقدمها ونشأة حضارتها إلا أن هذا متوقف على نشاط ملوك الإسلام وإمدادهم فيه .

فأولى هذه العقبات عقبة النفع الذاتي الذي يتخلل الأعضاء والجوارح وتنمو الأجسام عليه حتى صار ملكة راسخة يمسر زوالها ولا يرجى برؤها وهي أعظم حائل دون الزام من الإصلاح وما دامت هذه الروح الخبيثة تتردد في شفاف القلب وتجول في ميدان الذنوب فلا وأبيك نرى إصلاحا فسادنا ولا نجاحا لأعمالنا (إنما يضر

(١) كل ما كتب بين قوسين في هذه المقالة فهو عن لسان المنار .

حب الذات الذي تضيع به الحقوق العامة وهذا عرض يزول بالتربية والتعليم (الصحيحين) .

والثانية من هذه المقيبات المصيبة القومية التي إذا التفتنا إلى جهتها نقضى لأول نظر باليأس من النجاح في خطة التقدم والفلاح فإن ما نراه ونسمعه من السعى في إفساد ذات البين الذي جاء الإسلام بحظره وخطره يحملنا على إنكار القول بإمكان الإصلاح (هذا غلو في اليأس) ولا ينبغي أن الأمة الإسلامية وحدت كلمتها وضمت متفرقها برفع المغايرات الجنسية فإذا انحلت هذه الرابطة ونظر كل شعب وقبيل إلى نفعه حكم بتفريقها وتوزيع سلطتها ضرورة كالحبل المؤلف من أجزاء فإذا انحلت أجزاؤه ذهبت متانتها وتلاشت منه القوة التي يقتدر بها على حمل الأثقال وقد استلقت الدين الإسلامي الجمهور إلى التمسك بعروة الإخاء الديني كيلا تتمكن الدسائس الإبلسية والشهوات النفسانية من حل عراه وقد أبت السياسة الخرقاء إلا أن تفرق هذه القبائل والشعوب التي أمر الله بتعارفها وإئتلافها لوجهة من السياسة مظلمة وطريق من التحكم وعمر .

وإذا نظرنا إلى تقابل الطوائف الإسلامية التي فرقها اللغات وجمعها الدين نراه كالتقابل بين الأمم التي فرقها الألسن والأديان ولا يسعنا الحال الحاضر أن نبين مقدار الانفراج الحاصل بين الشعوب الإسلامية لئلا ينكشف الطلاء .

الثالثة منها الاختلافات الطرائقية والمذهبية ولا يحقر شأن هذه الاختلافات التي باعدت بين الأمة وقد أحدثت خلاعا عظيما يصعب تلافيه .

الرابعة منها السعى في إفساد الأخلاق والآداب من أفراد يعلم شأنهم .

الخامسة منها السعى في انحطاط درجة علماء الدين من أنظار الأمة وقد أخذ بعضهم في لومهم لتقصيرهم عن القيام بإرشاد الأمة وقد ذهل اللائم عن السبب الباعث

على سكوتهم وسكونهم وما هو إلا ما اتخذ من الحجر على أسباب معاشهم وحصرها تحت يد من يتسنى له تسييرهم على مقتضى أغراضه وأهوائه (تأملوا أيها العلماء بماذا يدافع عنكم من يندركم من الأمة فما بال من يمدلكم) ولم يزل السعى بتقليص نفوذهم من أنظار الأمة بأسباب معلومة واتخاذ من تشبه بهم من أراذل الناس فى الوظائف لتتسع دائرة التهم عليهم فينحط شأنهم ويسقط سلطانهم . ويكفى لانهطاط شأنهم ما يلقى فى بعض المكاتب العالية إلى التلامذة من بعض المعلمين من أن علماء الدين هم السد بين الأمة والترقى (ولماذا لا يكذبونهم بفعلهم) وهذا الفكر تلقفوه من الأورباويين وقلدوهم فى إطلاقه وما علموا الفرق بين سلطة العلماء فى الدين الإسلامى وسلطة رؤساء الدين المسيحى فإن من تتبع تواريخ الأمة الإسلامية لا يقدر على إثبات حادثة تسند إلى علمائه تداخلا فى شؤون الحكومات إلا ما كان من ضمن دائرتهم ولم يكونوا فى عصر ما حاجزين الناس عن تعلم ما يفيد فى معاشهم ومعادهم (فى هذا نظر ظاهر إلا إذا أراد الحجز بالقوة وليس من شأنهم) والتصانيف العديدة فى أنواع العلوم والمعارف شاهدة (أين مصنفات علماء هذا العصر فى الفنون) وإعطاء حرية الأفكار ضمن صحائفها مما يعلم به درجة التقدم وثمة عقبات وسدود أرجأتها لوقت آخر .

(م ع م)

(النار) لقد جمعت هذه المقالة على إيجازها ما لم تجمعه المطولات التى كتبت فى موضوعها لكن فيها إجمالا وإيهاماً لا بد معهما من بعض البيان والتفصيل .

أشار الكاتب إلى أن الإصلاح طريقين اثنين لا ترقى أمة إلا بأحدهما أو كليهما . ذلك بأن الارتقاء إما أن يكون من قبل الأمة كارتقاء أوروبا وإما أن يكون من جانب الحكومة كارتقاء اليابان التى نهض بها امبراطورها « الميكادو » نهضة واحدة وقد أشار الكاتب إلى هذا بقوله « إلا أن هذا متوقف على نشاط ملوك

الإسلام وإمدادهم فيه ، وكان الأولى أن يقول متوقف على نهوض ملوك المسلمين وأمرائهم وقيامهم به . وأما الأول فقد بينه بعض البيان بذكر العقبات الخمس . ذكر خمس عقبات وسكت عن بعض العقبات والسدود أو أرجأها ولكنه أهل بيان الأطواد الشوامخ التى يسهل بالنسبة إليها كل حزن وتفتح كل عقبة . تلك الأطواد مؤلفة من سلسلتين عظيمتين وهما رجال الدين ورجال الحكم والسلطان . فقد كان الفريقان متحدين فى أوروبا على مقاومة كل ما يسمى علما واكتشافاً واختراعاً وحرية وعدالة ومساواة وإن شئت قلت مقاومة كل ما يصرف قلوب الناس عن العبودية لهما ويجعلهم مستقلين فى إدارتهم كاملين فى إنسانيتهم . أما رجال الدين فكانوا يعادون العقل والعلم وتناجها باسم الدين وكانوا يزعمون أن كل علم أو عمل لم ينطبق على ما فى كتبهم الدينية فهو كفر وإلحاد ومن جاء به مباح الدم والمال وكان الملوك والحكام تبعاً لهم ومنفذى لإرادتهم ، وما ذلك إلا لأن الفريقين كانا مشتركين فى تلك السلطة المطلقة والمشيئة النافذة وما كانا يقابلان به من الخضوع الأعمى والطاعة التامة . نعم كانوا يعادون العلم لأنهم جهلاء والناس أعداء ما جهلوا فلما علموا صاروا أنصار العلم وأعوانه كانوا يرون أن العلم يصدح عن حفظ الدين فصاروا يمتدنون أنه لا يمكن حفظ الدين وإبقاء شرفه إلا بالعلم ، ولذلك ترى نظار المدارس وأكثر أساتذتها من الرهبان والقسيسين بل معظم المدارس فى الغرب والشرق للجمعية الدينية وهل الترقى إلا بالمدارس وفى المدارس ومن المدارس . فبدأ ترقى أوروبا الإصلاح الدينى وأمام المسلحين فيها هو الرجل العظيم (لوتر) .

ونتيجة هذا كله أن الإصلاح الإسلامى يتوقف قبل كل شيء على إقناع العلماء ورجال الدين بأن العلوم الرياضية والطبيعية التى هى محور الثروة والقوة والعزة ضرورية لا مندوحة عنها ويجب أن تعلم مع الدين وأن يقوم بتعليمها رجال الدين

لأن تركها للمدارس الأميرية والأجنبية التى يقولون (لا دين فيهما) يجعلها خاصة بمن لا دين لهم وهؤلاء لا يرجى منهم خير للأمة والملة ولا يسقط الوجوب بهم ، وتركها بالسكينة مذهب للدنيا والدين إذ الدين لا يمكن حفظه إلا بالدنيا فتعين أن يجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا (الرياضيات والطبيعيات) وإن الشريعة الإسلامية تصرح بأن تعلم الصناعات التى يحتاج إليها البشر فى معاشهم واجبة على مجموع الأمة وأن ما يتوقف عليه الواجب المطلق كالجهاد واجب أيضاً ولا يستطيع أحد أن يقول إن الجهاد والصناعات ممكنة بغير هذه الفنون - مع هذا كله نجد أكثر رجال الدين عندنا يعادون هذه الفنون وأهلها بل يكفرونهم ومنهم من عمى عن الوقت والزمان فزعم أنها لا حاجة إليها البتة . ومن العجيب أن فقهم يقتضى أن تعلم الفنون العسكرية التى يتوقف عليها الحرب فرض عين فى أكثر البلاد الإسلامية وهذا الحكم الذى لا نزاع فيه بينهم يستلزم أن جميعهم فساق تاركون للفريضة وربما يستلزم أكثر من هذا لاسيما باستحلال هذا الترك .

هذا وإن هناك عقبات أخرى فى طريق الإصلاح دخلت على الأمة من خروق وكوى فتحت فى جدار الدين فإذا لم تسد هذه الخروق والكوى فإن الإصلاح يكون كالعلاج مع تناول الأغذية المضرة وقد أخذنا على أنفسنا الدأب فى هذا العمل الشريف طول حياتنا ولنا الرجاء فى عقلاء العلماء أن يوازرونا ويمضدونا ولا بد أن ينتهى هذا الجهاد بانتصار الحق وانكسار الباطل والمأقبة للمتقين .

وأما السلسلة الأخرى (الأمراء والحكام) فإنها لا تغلب إلا بالعلم فهى تستبد فى الأمر وتستعبد الرعية مادامت الرعية جاهلة خرقاء فإذا علمت ما لها وما عليها وصارت رشيدة عاقلة يرتفع الحجر والاستبداد بالطبع والله درالسيد جمال الدين الحكيم الإسلامى

الشهير حيث كان يقول «إن العاقل لا يظلم لاسيما إذا كان أمة» ولهذا نقول إن المطالب بالإصلاح قبل كل أحد العلماء وهذا هو المراد بكونهم ورثة الأنبياء. وكل العقبات التي ذكرها الكاتب الفاضل تزول بإرشادهم وإصلاحهم إذا هم قاموا به على وجهه إن شاء الله تعالى .

ثم إن لنا كلاماً في العقبة الخامسة وهو - إن ما ذكره من السبب في سكون العلماء وسكوتهم عن الإرشاد صحيح إلا أنه لا ينهض حجة شرعية ولا عقلية على أنه عذر لهم عند الله والناس إلا إذا كانت الرشوة حجة على عذر المرتشي إذا هو ظلم وضيع الحقوق . نعم إن الحكومة استألتهم إليها بحمل معاشهم من الأوقاف في قبضتها وبإعطائهم الرتب والوسامات حتى أذعنوا لباطلها وسكتوا على انحرافها عن جادة الشرع بل صاروا يمدحونها ويعظمونها تملقا ونفاقا حتى سقطوا من عين الأمة والحكومة مما وضعف نفوذهم فيها ولو وقفوا عند الحدود المشروعة وقاموا بوظائفهم المقدسة مع مراعاة الحكمة لزادهم الحكام والمحكومون تعظيما وتبجيلا ولكل هذا أمثال مشهودة لا يستطيع أحد إنكارها . ثم إن جماهيرهم معرضون عن معرفة أحوال الوقت في غيبة عما يحتاجه الناس وعن طرق الوصول إلى تلك الحاجات بحسب الزمان والمكان ولذلك صار الناس لا يشعرون بأن لهم حاجة إلى العلماء إلا في مسائل شاذة نادرة . ويسهل عليهم أن يختبروا حال الأمة بالامتزاج بالعامية وتقصى أمورها المعاشية والدينية والأدبية والوقوف على رغائبها ثم إيقافها على ما تحتاج الوقوف إليه من الطرق التي يوافق رغائبها ويسهل عليها سلوكها . عند هذا تشرم الأمة بشدة حاجتها إليهم فتزيد في تعظيمهم وتبجيلهم وإكرامهم ولهذا أيضا أمثلة مشهودة لا يستطيع إنكارها إلا من يكابر الحس وينكر الموجود . من فهم هذا يتجلى له أن النار قد خدع العلماء وتعمّل في زيادة تعظيم شأنهم حيث قد ألقى معظم تبعه الأمة عليهم لأن أكثر الناس كانوا يظنون

أنه لاشأن لهم في الإصلاح كما أنه خدم الحكام بعدم حصر النعمة فيهم كما كان يعتقد السواد الأعظم وما أقصد بهذا وذاك إلا بيان الحق والإصلاح من طريقه والله عليم بذات الصدور .

﴿ باب التربية والتعليم ﴾

﴿ تأثير الوعظ والتذكير ﴾

كان منشىء هذه الجريدة جالسا يوما من أيام رمضان في مقصورة ضريح سيدنا الحسين [عليه السلام والرضوان] وبجانبه شيخ من أكبر علماء القطر المصري فنظرنا إلى القوم الذين يقبلون الأرض وقفص النحاس الذي على القبر ويستغيثون ويطلبون حاجاتهم فقرأ الشيخ « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » وأشار إليهم فقرأت أنا « قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين » ثم قلت له ما بالكم معاشر العلماء ساكتين على هذه المنكرات وقد وصلت إلى هذا الحد ؟ فقال إن الزمان قد فسد فلا يلتفت الناس إلا إلى الباطل قلت إن الحق يعلم ولا يعلم عليه فإذا تصارع هو والباطل وثبت فلا بد أن تنتهي المصارعة بالغلب له ، فقال (إذا ثبت) قلت وما يمنعه من الثبات ؟ قال إن المشتغلين بالوعظ الضر والتعليم الممزوج بالخرافات يسمعون في منع من يعلم تعلما صحيحا ويمظ وعظا نافعا ويساعدون من يتصلون به من الكبراء ويظعنون بالوعاظ الصادق المطاعن الدينية والسياسية ، قلت له على كل حال يجب على صاحب الحق أن يظهره حتى يمنع ويجاهد به جهادا كبيرا أو يغلب على أمره . قال الشيخ لو تصدى عالم لقراءة التوحيد الصحيح والأخلاق لا يقبل عليه الناس ولكنهم يقبلون على القصاص الذين